هل كانت العربية لغة خليل الرحمن ؟

الأستاذ علي الخطيب ، مجمع البحوث الإسلامية ، القاهرة

لغة خليل الرحمن ابراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ شغلت الباحثين من علماء الاديان فى العصر الحديث ، وبخاصة بعض الذين يهمهم أن ينحرفوا ببحوثهم فى اتجاه معين مسبوق بتخطيط ينسلخ بسببه العرب عن صلتهم بالخليل ، على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام .

واذكر ان الاستاذ عباس محمود العقاد ـ رحمه الله ـ قد وضع كتابيه : « ابو الانبياء : الخليل ابراهيم » و « الثقافة العربية اسبق من ثقافة اليونان والعبريين » وتصدى فيهما لهذه القضية واستطاع أن يرد الى نحر المنحرفين سهامهم . وتبع ـ رحمة الله عليه ـ منهج «تقصي الحقائق» فى بحثه الذى اشتمل عدة مناهج تلاقت نتائجها فى النهاية عند حقائق مثيرة تثبت صلة ابراهيم الخليل الوثيقة بالعروبة فى وقت مبكر يقع بين القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد .

ونحن نقتصر هنا ـ مستعينين بالله ـ على منهج « الحديث النبوي الصحيح » فى الكشف عن لغة خليل الرحمن ، فان السنة المطهرة قد استقام بها كثير من حقائق التاريخ والكون حين تعرض لها رسولنا الكريم المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقد ساق الامام البخاري رضي الله عنه فى صحيحه حديثا ، رواه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ، ابان عن امر الخليل بمكة وافاض فيه حتى ليكاد يكون الحديث الوحيد الذى استوعب صفحات عدة من هذا السفر العظيم (1)، نوجز تلخيصه وتحديد موضوعاته فيما يأتي :

1 ـ تحدث عن الشخصيات الطاهرة التى نزلت مكة وقت كان ليس بها احد ولا ماء ، وهم : الخليل ابراهيم ، وهاجر وابنهما الرضيع اسماعيل صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين .

2 ـ نبع زمزم لهاجر وولدها .

3 ـ قدوم بطن عربي جرهمي واستئذانه هاجر فى السماح له بالاقامة فى مكة راضين بشرطها « الا حق لهم فى الماء » ، واستقدموا اهلا لهم ، وقد شب اسماعيل عليه السلام بينهم ، وتزوج منهم مرتين .

4 ـ زيارات ثلاث للخليل الى مكة لوديعته ـ عدا الاولى التى قدم فيها بأهله اليها ، وكان اخرها تلك الزورة التى بنى فيها البيت مع ولده ـ عليهما الصلاة والسلام ـ وامر فاذن فى الناس بالحج .

وهذا الحديث الشريف يعطي حقائق موضوعية هامة توضح بعض ما غاب عن التاريخ فى منهجه الحديث :

اولها : بيانه الواضح عن مبدأ تاريخ العمران فى مكة ، والذين يعنون بتسجيل العصر التاريخي للامم القديمة ليس امامهم وثيقة ادق من هذا الحديث لبيان بدء العمران بمكة وارتباع الناس فيها وسكناهم بها ، فاذا كان الخليل ـ صلوات الله عليه ـ قد عاش

(1) صحيح البخاري 172/4 مطابع الشعب بالقاهرة 1378 هـ

بين القرنين السالفين من قبل الميلاد ، كان ذلك يعني ان هذه الفترة مبدأ دخول مكة عصرها التاريخي .

ثانيها : يوضح هذا الحديث الشريف فى جلاء نادر « حلقة مفقودة » لدى المؤرخين الذين توصلوا الى ممالك الاسماعيليين فى شمال الجزيرة مثل : تيماء ، ودومة الجندل وغيرهما ، دون ان يصلوا ـ عن طريق منهجهم ـ الى «مهاد» هذه الرؤوس الشريفة من ابناء اسماعيل ، اعني الصدر الاول من ابنائه لا احفاده ومن بعدهم ، فقد ظلت هذه المهاد حلقة مفقودة الا فى هذا الحديث ، فهو وحده الذى يقدمها عبر ضوء شديد ينير من حولها كل السبل ويقطع بأن الاسماعيليين صعدوا من الجنوب (مكة) فامتلكوا فى الشمال (أعالي الجزيرة) وليس العكس.

ثالثها : لغة خليل الرحمن ـ على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام ، وهنا يعنينا ان نتحدث عنها وحدها دون ان نتعرض للغة اسماعيل عليه الصلاة والسلام ، وذلك لامر واحد ، هو ان اسماعيل نشأ رضيعا فى قبيلة جرهم وتلقى العربية عنهم ، وفى هذا الحديث الشريف جاء عنه .. « وشب الغلام وتعلم العربية منهم وانفسهم واعجبهم » لذلك نريد ان نتحدث عن لغة خليل الرحمن وحده ، وهو الذى لم يقطن مكة ولم يجاور جرهم الا سويعات فى الزيارة الثانية والثالثة ، ومدة بناء البيت فى الرابعة . أما الاولى فلم يكن بمكة يومئذ احد وربما لم يمكث فيها ساعة من نهار ، وها هو الجزء من الحديث الخاص بها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما عن «هاجر» ـ عليها السلام : ثم جاء بها ابراهيم وبابنها اسماعيل ـ وهي ترضعه ـ حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى اعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ احد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى ابراهيم منطلقا، فتبعته ام اسماعيل ، فقالت : يا ابراهيم ! اين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذى ليس فيه انس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت اليها ، فقالت له : آلله الذى امرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : اذا لا يضيعنا . ثم رجعت . »

ولا يمكن ان يقال : ان ابراهيم مكث شيئا ذا بال بمكة ، انه ما ان وضعهما حتى انطلق راجعا ، وبالتالي ما كان فيها من احد غير اهله .

ولما كانت الزيارتان الثانية والثالثة كلاهما ذا اهمية فى الموضوع نسوقهما لنعرف منهما ما لغة خليل الرحمن عليه وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام ؟ وكلتاهما كانتا بعد زواج اسماعيل صلى الله عليه وسلم . واسماعيل تزوج مرتين من قبيلة جرهم العربية ، قال :

« فجاء ابراهيم بعد ما تزوج اسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد اسماعيل ، فسأل امراته عنه ، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة ، فشكت اليه ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ، وقولي له : يغير عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل كأنه آنس شيئا ، فقال : هل جاءكم من احد ؟ قالت : نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك ، فاخبرته ، وسألني : كيف عيشنا ؟ فاخبرته : انا فى جهد وشدة ، قال : فهل اوصاك بشيء ؟ قالت : نعم ، أمرني ان اقرأ عليك السلام ، ويقول : غير عتبة بابك ، قال : ذاك ابي ، وقد امرني ان افارقك .. الحقي باهلك ، فطلقها »

هذه كانت الزيارة الثانية ، ويمكن ان يضع لها القاريء تقدير الوقت الذى استغرقته ، وهذه هي الثالثة .. قال :

وتزوج منهم (يعني من جرهم التى تزوج منها اولا) اخرى ، فلبث عنهم ابراهيم ما شاء الله ، ثم اتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امراته فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا ، قال : كيف انتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة ، واثنت على الله ، فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال : فما شرابكم ؟ قالت الماء ، قال : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء

قال النبي صلى الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حب ، ولو كان لهم دعا لهم فيه ، قال : فهما لا يخلو عليهما احد بغير مكة الا لم يوافقاه ، قال : فاذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء اسماعيل قال : هل اتاكم من احد ؟ قالت : نعم ، اتانا شيخ حسن الهيئة ، واثنت عليه، فسألني عنك فاخبرته ، فسألني : كيف عيشنا فاخبرته انا بخير ، قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم هو يقرأ عليك السلام ، ويأمرك ان تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك ابي وانت العتبة ، أمرني أن أمسكك . »

ونعيد لفت نظر القاريء الى النظر فى قدر هذه الزيارة الزمني . ثم نلاحظ ان الخليل فى كلتي

الزيارتين اعقبهما بالرحيل فلم يمكث بمكة مقدار شهر او اكثر حتى نقول : انه اخذ اللسان العربي ابان اقامته .

واذا كان من الحقائق الهامة التي يقدمها هذا الحديث الشريف ان زوجتي اسماعيل : الاولى والثانية من جرهم ـ اذ نص على ذلك حيث يقول عن الاولى : « فلما ادرك زوجوه امراة منهم » وعن الثانية « وتزوج منهم اخرى » . ـ فهذا يعني ان كلا الكنتين عربيتان خالصتان ، ومن العسف أن يدعي مدع انهما تعلمتا لغة اخرى غير العربية .

كذلك ثبت لنا ان خليل الرحمن ـ على نبينا وعليه افضل الصلاة والسلام ـ لم يمكث بمكة قدرا يعلمه العربية ، وكان يخاطب كنتيه، وقد انفرد بكل منهما ـ دون ثالث يمكن ادعاء انه ترجم بين لسانيهما .

وهذا امر يعني ـ دون تردد ـ ان الخليل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان ذا لسان عربي مبين فما كانت «المخاطبة» بينهما ـ في كل مرة ـ كلمة عابرة تؤديها اشارة ، ولكنها حوار دار بين اخذ ورد انتهى بحكمه على كل منهما ، فواحدة كانت شؤم بيت زوجها والاخرى كانت حسنه وخيره

واذا كان الخليل ـ عليه السلام ـ ذا لسان عربي ولم يكن من اهل مكة ، ولا كان من اهل الجنوب (اليمن وما حولها) وكان من الشمال ، فهذا يعني ان العربية كانت مسيطرة ـ كلغة حياة ومعاش ـ في هذا الشمال الذي كان فيه الخليل وهنا نلتقي بالاستاذ العقاد ـ رحمة الله عليه ـ الذي يعطي بحثه نفوذ العربية القديمة في شمال الجزيرة حتى تخطت العراق وما كان الى غربه وشماله .

وحتى يتم لقاء «علمي» بين الحديث الشريف و « التاريخ » في منهجه الحديث ينبغي النظر في الهجرات العديدة التي تمت في العصر التاريخي لجنوب الجزيرة ، اعني منذ اربعة آلاف سنة من قبل الميلاد ، فقد توالت هجرات منه الى الشمال في خطين . وامتلكت بعض هذه القبائل الشمال ودان لها ، وفي منتصف هذه الآلاف الاربعة ظهر الخليل عليه السلام كعربي اصيل ، لانه منها ، ولانه يستحيل ايضا ان يدعو الى دين الله في قلب الجزيرة ، ويؤذن للناس بالحج ـ وفي مقدمتهم جرهم القاطنة حول البيت ـ بلسان غير عربي، قال تعالى: «وما ارسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم (ابراهيم 4) والحج شريعة الخليل عليه السلام .

ولسنا نقول : انه عليه السلام تحدث بالعربية التي هي عربيتنا ـ اعني لغة القرءان الكريم التي بها انزل ـ لكنها عربية زمانه بفصاحتها ، وما من شك انها كانت وليقة الصلة : اصولا وفروعا بعربية القرءان الكريم .

ولقد اوحى الى رسولنا المصطفى صلى الله عليه وسلم ببعض دعائه في تعويذة كان يعوذ بها ولديه : اسماعيل واسحاق عليهما الصلاة والسلام ، فعوذ بها المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ولديه : الحسن والحسين ، فقال : اعيذكما بكلمات الله التامة ، من كل شيطان وهامة ، ومن كل عين لامة »

قد لا تكون عين الالفاظ ، لكنها العربية ، وليس الفرق بينهما الا ان الاولى عربية الخليل عليه الصلاة والسلام ، والاخيرة عربية المصطفى خاتم المرسلين صلى الله عليه وسلم .